مفاتح التعلم

تأليف:

حسين بن محمد الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ المقدمة ﴾

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على رسوله الأمين . . أما بعد :

فهذه مساهمة يسيرة في البناء العلمي . . كتبتها لمن سمت همته فرغب في طلب العلم الشرعي وأقبل عليه . . والله الموفق . .

المفتاح الأول : المقدمات :

المقدمة الأولى : التصور المجمل للعلم الشرعي :

تدور فنون العلم الشرعي حول نصوص الوحي . . فمنها فنون تمهد لتلقيه تلقيا صحيحا مثل علوم اللغة والأصول والمصطلح . . ومنها فنون تعالج فهمه بشكل مباشر مثل التفاسير وشروح الأحاديث . . ومنها فنون تعتني بضبط النصوص في التحمل والأداء مثل القراءات والتجويد والرواية . . ومنها فنون تحصد نتائج النص وتعاليمه التفصيلية مثل العقيدة والفقه والآداب . . ومنها فنون تجمع مراميه في قواعد عامة مثل فنون المقاصد والقواعد والنظريات الفقهية . . ومنها فنون توثق تاريخ النص من جهة التنزيل والحفظ والتوارث وما يكتنف ذلك من مدارس واتجاهات ورموز . . وفي محيط النص تدرس الحقب الزمانية المتصلة به كالسيرة الرسالية والتاريخ الإسلامي . .

وأصل ذلك أن الدين الإسلامي دين يتأسس على السمعيات . . ومع ذلك فهو لا يلغي دور العقل . . فللعقل وظيفته في النظر في براهين الربوبية . . ودلائل النبوة . . وله دوره في تلقي

النص . . وحفظه . . وفهمه . . وتنزيله . . فهو عاضد للسمع ابتداء . . وخادم له انتهاء . .

ولما كان الدين مؤسسا على السمعيات . . برزت أهمية تمحيص الطريق النقلي للتأكد من صحة النقل . . فظهرت للوجود علوم الرواية القرآنية والحديثية . . وبدت مع ذلك علوم اللسان لصيقة بفهم الدين . . فتوافرت الهمم على ضبط علوم اللسان من نحو وصرف وبلاغة وإملاء واشتقاق وأساليب . . واحتيج معها إلى علم الأصول الذي هو في جوهره ضبط لأدلة الاحتجاج وقواعد الاستنباط . . وعلى هدى من هذه العلوم التمهيدية تناول المفسرون والشراح نصوص القرآن والسنة . . وبعد تمحيص النصوص نقليا وفحصها دلاليا جمعت مادتها التكليفية جمعا موضوعيا في مباحث العقيدة والفقه والآداب والفضائل والمناقب وغير ذلك . . واستخلصت قواعدها العامة في مسارات التصنيف المقاصدي والقواعدي . .

ومن هنا تشعبت فنون العلم الشرعي . . وانقسمت إلى تخصصات متعددة . .

المقدمة الثانية : الحفظ والفهم :

لما كان الدين سمعيا – كما تقدم – أدى ذلك إلى اعتماد آليتين لتحمله وأدائه . . آلية الحفظ المعنية بلفظ النص . . وآلية الفهم المعنية بمعنى النص . . والآليتان متخادمتان . . ولا غنى للدارس عنهما . . فهما كالجناحين للطائر . .

وفي سبيل تذليل التعلم وتسهيله اقترح العلماء قديما وحديثا اقتراحات متنوعة للقدر اللازم من المحفوظات . . لاسيما في مجال السنة النبوية نظرا لانتشارها وكثرة المصنفات فيها . . وكان من أبرز المقترحات المتون المختصرة الجامعة كعمدة الأحكام وبلوغ المرام والمحرر والمنتقى . . وهذه كلها تنحو المنحى الفقهي . . أما في المجال العام فكان من أبرز المقترحات جوامع الصحيحين كجمع الحميدي واللؤلؤ والمرجان . .

أما الفهم فيرتكز على ثلاثة أشياء : أولها الموهبة الفطرية التي يهبها الله من يشاء من عباده . . وثانيها المهارات العقلية التي تكتسب – بإذن الله ومعونته – عن طريق مخالطة العلماء ومنادمة انتاجهم العلمي . . وثالثها تلقي مبادئ العلوم ومصطلحاتها تلقيا مباشرا من ذوي الشأن . .

ومما يكمل الشخصية العلمية ويتمم مطالبها أمران : أولهما : توسيع الاطلاع على المؤلفات العلمية في الفنون المختلفة . . وثانيهما : معافسة البحث العلمي ومكابدة مشاقه . .

ورأس هذا الأمر من أوله إلى آخره المدد من الكريم الوهاب توفيقا وتيسيرا و إعانة وقبولا . . لا حرمنا الله من فضله . .

المقدمة الثالثة : الشيخ والكتاب :

لما كان الدين سمعيا - كما تقدم - تحتم في نقله أن يكون محفوظا في الصدور أو السطور . . لذا صارت مصادره إما شفهية . . وإما كتابية . . فانحصر التعلم في هذين الطريقين : إما الشيخ المؤدي . . وإما الكتاب المصنف . . ولا غنى للطالب عن الطريقين . . فالشيخ فيه الاقتدار التعليمي . . والتفاعل الحيوي . . والكتاب فيه الضبط الدقيق . . والحفظ المستمر على تعاقب الأزمان . . والأكمل للمتعلم أن يأخذ بنصيبه من الطريقين . . فيتلقى عن الشيخ المتقن أصول العلوم . . ومصطلحات أهلها . . وقواعد السير فيها . . ومهارات النظر فيها . . وينهل من خبراته المتراكمة في المدة الطويلة ما يختصر عليه المسافات . . ويدون من ملاحظاته واختياراته وتنبيهاته ما يكون عونا له في فهم العلم فهما متمكنا . . ومع ذلك يأخذ من الكتب ما وثقته الصفحات من أقوال العلماء الماضين . . واختياراتهم . . وطرق عرضهم للعلوم . . وما اختصروه من جليل العلم . . وما بينوه من دقيق العلم . . فيحصل للمتعلم من الطريقين خير عظيم . .

ولا داعي هنا لطرح أفضلية هذا على ذاك . . لأنه إذا توفر للمتعلم الأخذ منهما فعدوله عن أحدهما خيبة وغبن . . أما إن فاته أحد الطريقين بما هو خارج عن إرادته ففي الآخر عوض إن شاء الله تعالى . .

على أننا ننبه المتكاسلين . . والمستكبرين . . إلى أن تلقي العلم عن الشيخ المتقن يقي من مضلات كثيرة . . ويعصم من زلات خطيرة . . فلا يقعدن أحد عن مجالس العلم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . .

المقدمة الرابعة : المنهج :

لابد للتعلم من خطة . . ومراحل . . وفترات زمنية . . وخطوات واضحة . . ووسائل صحيحة . . لذا فالعلم لا يتأتى مع الفوضى . . والاستعجال . . والتخبط . .

ولما كانت العلوم الشرعية مرتبطة ببعضها البعض صار لزاما على طالبها أن يمر عليها جميعا . . ثم يتخصص بما شاء منها . . والمرور عليها جميعا يقتضي أحد طريقين . . إما الجمع بينها . . مع تنظيمها في مستويات متعاقبة . . وإما إفراد كل علم منها – بمستوياته كلها – بمرحلة زمنية مستقلة . . لكن ضبط التعلم على إحدى الطريقتين ضبطا مثاليا ليس بالأمر الهين . . لذا فالتجاوزات اليسيرة . . والتعثرات العابرة . . لا ضير منها بإذن الله تعالى . .

وقد اقترح العلماء قديما وحديثا منهجا دقيقا في كل فن . . وهي اقتراحات منعكسة عن خبرات شخصية وأذواق علمية . . لذا فلا ينحصر المنهج فيها . . ولا يتوقف التعلم عليها . . وما خاب من استشار . .

المقدمة الخامسة : الهدف :

للتعلم هدفان رئيسيان . . الانتفاع الشخصي . . والنفع العام . . فالانتفاع الشخصي يكون من وجوه . . أولها الدراية بمراد الله تعالى لامتثاله والعمل بموجبه طمعا في رضى الله تعالى وثوابه وتجنبا لغضبه وعقابه . . ثانيها تحصيل ما يترتب على التعلم من فضل يختص به . . ثالثها : تحقيق الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام ونيل شرف تلقي الميراث الرسالي . . رابعها : حفظ الوقت وشغل العمر بما فيه خير الدنيا والآخرة . . أما النفع العام فيكون من وجوه : أولها : المساهمة في حفظ الشريعة . . ثانيها : المشاركة في المشروع الإصلاحي العام . . وذلك أن التعليم واحد من أنشطة كثيرة تحتاجها الأمة للنهوض على قدميها مرة أخرى . . ثالثها : التسبب في تثبيت المؤمنين وتعليم الجاهلين و هداية الضالين ودفع الشبهات عن الدين . .

وهذه الوجوه كلها تتمحور حول الإخلاص لله تعالى . . وتلمس مواطن رضاه . . وتتبع أسباب ثوابه . . وتقصد الامتثال لشريعته . . والانتصار لدينه . . والنصح لعباده . .

لذا جاءت النصوص في العلم الشرعي على أنحاء متنوعة . . فمنها نصوص تحث على التعلم . . ومنها نصوص تؤكد على الأمانة في نقله وتحذر من الخيانة والغش فيه . . ومنها نصوص تحرض على نشره وتحرم كتمانه . . ونصوص تأمر بالإخلاص فيه وتنهى عن الرياء والمباهاة فيه . . وهي في كل نحو منها تمس الهدف بوجه من وجوهه . . وتهذب الغرض فيه . . وتقوم الغاية منه . . والنصوص في هذا الباب كثيرة مشهورة ذكر جملة منها النووي في رياض الصالحين /كتاب العلم . . والمنذري في الترغيب والترهيب /كتاب العلم . . فمنها قول الله تعالى " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " . . وقول النبي صلى الله عليه وسلم " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " متفق عليه . .

المفتاح الثاني : معرفة موضوعات العلوم إجمالا :

يحتاج الطالب إلى التعرف على مضامين العلوم وموضوعاتها إجمالا قبل الخوض في تفاصيلها . . وفيما يلي جولة سريعة في العلوم الشرعية :

العلم الأول : علم اللغة العربية :

وحيث أن هذا العلم يتفرع إلى فروع عديدة فقد رأيت إفراد كل فرع منها بوجيز من البيان كما يلي :

الفرع الأول : الإملاء :

يدور هذا الفن حول تصحيح الكتابة باللغة العربية وفق اصطلاحات درج عليها أهل اللسان فأصبحت قانونا كتابيا لمن يمارس الكتابة . . ومن أمثلة قوانين الإملاء أن "الاسم الثلاثي إذا كانت ألفه المتطرفة منقلبة عن ياء فإنها ترسم ألفا لينة "كما في لفظ " الهدى " فإنها لا تكتب "هدا" وذلك لملاحظة أصل هذه الألف . . وذلك أن تصرفات كلمة " هدى " تدل على أن أصل الألف هذه ياء . . تقول هدى يهدي وهما مهتديان وهي مهتدية . . بخلاف ما لو كانت الألف المتطرفة من الاسم الثلاثي أصلها الواو فإنها حينئذ ترسم ألفا كما في "العلا" فإن أصل

الألف هنا الواو . . تقول علوت علوا وهو يعلو . . وعلى ضوء هذا القانون تتعامل مع الألف في كلمة " فتى " فتلين الألف نظرا لكون أصلها الياء كما يدل عليه التصريف تقول هذا فتى وهذان فتيان . .

وعلى غرار هذا القانون الكتابي تأتي قوانين الإملاء لضبط مواطن الاشتباه في الكتابة كما في التفريق بين مواضع التاء المربوطة والتاء المبسوطة . . كما تأتي قوانين الإملاء لبيان مواطن الزيادة والنقصان في الكتابة . . فانظر –مثلا– لكلمة "ذهبوا" كيف زيدت فيها الألف رغم عدم النطق بها . . وانظر لكلمة ابن في مثل " فلان بن فلان" كيف نقصت منها الألف في هذا التعبير الخاص . .

واعلم أن معظم الإملاء استهلكته الهمزة بأنواعها ومواضعها وأحوالها . . وذلك لمرونة سلوكها اللغوي نطقا وكتابة . .

ولعل كتاب عبد السلام هارون "قواعد الإملاء " يفي بغرض الطالب ويغنيه عما سواه . .

الفرع الثاني : بيان معاني المفردات :

وهـذا العلم يتنـاول كشـف المعنـى الاشـتقاقي للمفـردة . . فكلمـة "وقـب" في قـول الله تعـالى "قـل أعـوذ بـرب الفلق مـن شـر مـا خلق ومن شـر غاسـق إذا وقـب" يتوقف فهمها على كشـف معناها . . فـإذا ذهبـت إلى كتـاب المفـردات للراغـب – وهـو مصـنف مختـص ببيـان معـاني مفـردات القـرآن الكـريم – وجد تـه يقـول " وقـب : الوقـب كـالنقرة [أي التجويـف الصـغير] في الشـيء ، ووقـب إذا دخـل في وقـب ، ومنـه وقبت الشـمس غابـت [أي كأنهـا دخلـت في وقـب] ، وفي قولـه تعـالى " ومـن شـر غاسـق إذا وقـب " تغيبيـه " انتهى كلام الراغـب . . ويلاحـظ فيـه أنـه لم يكتـف ببيـان المعنـى المـراد بشـكل مباشـر بـل تـدرج في بيـان مراحـل تطـور المعنـى . . فكشـف أصـل المعنـى الاشـتقاقي . . ثـم أشـار إلى توليداتـه وتفريعاتـه . . ثـم بـين المعنـى المـراد في الآيـة . . والمقصـود هنـا غيـاب القمـر . . وعمـوم الظـلام . . قـال ابـن عاشـور "خـص بـالتعوذ أشـد أوقـات الليل توقعا لحصول المكروه" . .

ولـو ذهبـت إلى معجـم مقـاييس اللغـة لابـن فـارس لوجد تـه يقـول " الـواو والقـاف والبـاء كلمـة تـدل علـى غيبـة الشـيء في مغـاب ، يقـال وقـب الشـيء : دخـل في وقبـة ، وهـي كـالنقرة في الشـيء . و وقبـت عينـاه غارتـا ، ووقـب الشـيء نـزل ووقـع . قـال الله تعـالى " ومـن شـر غاسـق إذا وقـب "

قالوا هو الليل إذا نزل " انتهى كلامه . . فيلاحظ أنه التفت إلى معنى النزول والوقوع فجعل المراد في الآية نزول الليل وحلول الظلام . . وغير خاف أن غياب القمر يلازم نزول الظلام . . فحاصل المعنى واحد . . وإنما محل الاختلاف بين الراغب وابن فارس هو معالجة اشتقاق الوقب المنسوب للغسق . . وساعد على اختلاف المعالجتين صلاحية الغسق لمعنى القمر ولمعنى الليل . .

وهذا العلم علم لطيف وفيه متعة لكنه يشتكي من جفاء طلبة العلم . . والله المستعان . . أما الميسر من هذا العلم للمبتدئين فالمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية . . والسراج في بيان غريب القرآن للخضيري . .

الفرع الثالث : الصرف :

يدور علم الصرف حول التغيرات التي تدخل على أحوال بنية اللفظ المفرد فتفيد دلالات ثانوية لمعناه الأصلي . . فلفظ "سمع " يدل على فعل مضى لمعنى السماع . . بينما "يسمع" يدل على فعل متجدد في الحاضر لمعنى السماع . . أما " مسموع" فيدل على مفعول تعلق به السماع . . وهكذا تتبدل المعاني الثانوية لمادة " س م ع " بحسب الصيغ الصرفية المنبثقة عنها . . ولما كانت الصيغ الصرفية هي معقد تلك التغيرات تم تحييد المعنى الخاص الذي تنبثق عنه تلك الصيغ للضرورة الدراسية . . فابتكروا الميزان الصرفي الذي ينظر في الصيغ من حيث هي دون الوقوف عند المعاني الأصلية . . واختاروا لهذا الميزان مادة فعل تأكيدا على حيادية الصيغة . . فصار الميزان وتفريعاته هو " فعل يفعل فعلا فهو فاعل وفعيل ومفعول الخ" . . وجعل هذا الميزان نموذجا للدراسة الصرفية . . ومعيارا للتغيرات الطارئة على أحوال بنية اللفظ المفرد . .

وعلى أساس هذا المعيار يتم تحديد الحروف الزائدة في الألفاظ . . ثم يبحث في دلالة تلك الزيادة . . فمثلا " يستغفر " وزنها "يستفعل " فالسين والتاء مزيدتان على أصل الفعل " يغفر =يفعل " وزيادتها أفادت معنى الطلب . . فصار المعنى "يطلب المغفرة" . . ولو تجردت عن

هـذه الزيـادة لكـان معناهـا " يمـنح المغفـرة " . . فاسـتجد معنـى الطلـب في كلمـة " يغفـر " بواسـطة زيـادة السـين والتـاء . . وقـل مثـل ذلـك في " يسـتعيذ " أي يطلـب العـوذ . . والجـامع بـين اللفظـين مـع اخـتلاف معنييهمـا هـو الصـيغة الصـرفية " يسـتفعل " . . فانصـرف البحـث الصـرفي عـن مـادة المغفـرة ومـادة العـوذ إلى صـيغة "اسـتفعل " ذاتهـا . . فقـالوا صـيغة "اسـتفعل" تفيـد معنـى الطلـب . . وهكـذا شـيدت القواعـد الصـرفية حـول أمثـال هـذه التغـيرات . . ومـا يسـتفاد منهـا . . ومـا يســتدعيها . . أو يمنــع مــن امضــائها . . أو يعــالج نوادرهــا وشــواذها . . أو يعلــل تبــدلاتها وتحولاتهـا . . علـى أن التغـيرات لا تنحصـر في الزيـادة بـل تحصـل في صـورة النقصـان والانقـلاب والتفريع وغير ذلك مما هو مبسوط في علم الصرف . .

ولعل كتاب "شذا العرف في فن الصرف " للحملاوي يفي بمعظم غرض المبتدئين .

الفرع الرابع : النحو :

علم النحو يتناول موضع الكلمة من التركيب . . ومن خلال تحديد الموضع يتم فهم الدلالة التركيبية للمفردة في الجملة . . وهي دلالة زائدة على المعنى الاشتقاقي الأصلي للكلمة . . وزائدة –أيضا – على المعنى الصرفي الثانوي . . فكلمة يحب تدل اشتقاقيا على معنى الحب . . وتدل صرفيا – بصيغة "يفعل" – على تجدد هذا المعنى واستمراره . . وعند وضعها في التركيب التالي "الأب يحب ابنه" يدل موضعها التركيبي على صدور الحب من الأب إلى الابن . . وتنعكس الدلالة التركيبية إذا انعكس التركيب فقيل "الابن يحب أباه" . . وعلى هذا فلكل لفظ موضع في التركيب . . ولهذا الموضع دلالة ثابتة . . وللكلمة الواقعة فيه علامة تدل عليه وتشير إليه . . فمهما غيرت المفردة في التركيب السالف الذكر ستبقى الدلالة كما هي " أحمد يحب أصدقاءه" . . "الطفل يحب والدته" . . "الطائر يحب طعامه" . . فدلالة إسناد المحبة إلى كل من أحمد والطفل والطائر ثابتة لم تتأثر بتغير المفردة . . ومع تقدمك في الدراسة ستكتشف أن الكلمات المبدوء بها في الجمل السابقة كلها مرفوعة بالضم . . الأبُ . . الابنُ . . أحمدُ . . الطفلُ . . الطائرُ . . وذلك أن الضمة علامة على الموضع الذي شغلته المفردة . . وهو الابتداء . . لذا فعندما تأخر الأب في الجملة الثانية اختفت الضمة

وصارت من نصيب الاسم المبدوء به في الجملة وهو الابن . . وعلى هذا يتأسس علم الإعراب الذي هو إبانة لموضع المفردة من التركيب . . وما يفيده الموضع من دلالة . . وما يختص به من علامة تنبئ عنه . . وعند التقدم في الدراسة النحوية ستعرف أن الجمل وأشباه الجمل تقع موقع المفردات أيضا فتعامل معاملة المفرد من جهة الموقع و الدلالة . . وتحتفظ ببعض ما لها من حيث هي جمل أو أشباه جمل . .

ومن هنا نقول إن علم النحو يدور حول تراتيب المفردات داخل الجمل . . وما في هذه التراتيب من دلالات . . وما يدل عليها من علامات . . فالمفردة تأخذ موقعا . . تؤدي فيه دورا دلاليا تركيبيا . . وتكتسب منه علامة إرشادية . . وتتنوع المواقع بتنوع الجمل إلى اسمية وفعلية . . ففي الاسمية ابتداء وخبر . . وفي الفعلية فعل وفاعل . . ثم المواقع داخل الجمل تتفاوت في أهميتها التركيبية . . فمنها العمد التي يتأسس عليها بناء الجملة . . ومنها التتمات والمكملات . . فلو قلت " التاريخ " لم تتكون الجملة بعد . . فإذا قلت " التاريخ مدرسة " تكونت الجملة . . فإذا أضفت " التاريخ مدرسة للمعتبرين " تمت المعنى وأكملته . . وإذا قلت "التاريخ مدرسة عظيمة للمعتبرين" زدت في إتمام الكلام وتكميله . . فمعرفة تراتيب المفردات . . وما تؤديه مواقعها من أدوار دلالية في التراكيب يضمن لعملية التلقي السلامة من

الاختلال . . والعلامات الإرشادية لتلك المواقع هي علامات الإعراب . . ولذا يفتتح كثير من المصنفين كتبهم ببيان علامات الإعراب . . وذلك ليسهل استخدامها عند تفصيل الحديث في مواقع المفردات من التراكيب . . فهي بمثابة التوطئة لعلم النحو . .

ويبدو لي أن كتاب محمد خير الحلواني "النحو الميسر" يفي بغرض الطالب في مرحلته الأولى . . فإن لم يرتق الطالب إليه فليقنع ب"النحو الواضح" لعلي الجارم وآخرين . .

الفرع الخامس : البلاغة :

البلاغة في جوهرها عدول عن تعبير إلى آخر لتحقيق نكتة معنوية أو لفظية . . فالمعنى الواحد يعبر عنه بتعبيرات فصيحة صحيحة مختلفة . . وهذه التعبيرات تتفق في الدلالة على المعنى العام للتركيب . . لكنها تختلف في الدلالات الهامشية . . وتتفاوت في المستويات الجمالية . . والبليغ هو الذي يعدل عن تعبير إلى آخر لأجل تحقيق النكتة المعنوية أو اللفظية بما يناسب مراده ويحقق أقصى درجة في بيانه . . والنكت التي يقصدها المتكلمون كثيرة فمنها إشباع المعنى . . ومنها تحديد المعنى تحديدا دقيقا يدفع التوهم والاشتباه . . ومنها تحسين اللفظ . . ومنها تقريب صورة المعنى في الذهن . . ومنها إقناع المتلقي . . ومنها إثارة وجدان المتلقي . . الخ . .

فمثلا لو أردت أن تحث شخصا على القراءة فلك أن تحثه بشكل مباشر فتقول مثلا " أنصحك بالقراءة " . . ولك أن تعدل إلى تعبير أجمل ومعنى أمكن فتقول " القراءة سياحة العقول " . . ولك أن تعدل إلى تعبير آخر فتقول " لا يهمل القراءة لبيب " . . وهكذا تتفق التعبيرات على المعنى العام . . إلا أن لكل تعبير خاصيته البلاغية . . وأدق من ذلك ملاحظة النكت في الفروق الدقيقة بين صور التعبير الواحد . . كالفرق بين تنكير اللفظ وتعريفه . . وتقديم اللفظ

وتأخيره . . وهكذا . . وأدق من ذلك ملاحظة الفروق في التركيب الواحد بين اللفظ ورديفه . . كالفرق بين السخط والغضب . . والفرق بين المقت والكراهية . . وهكذا . . فتقول مثلا "حارب الصديق خليفة رسول الله أهل الردة" إذا اهتممت بنكتة بيان منزلته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يستدعيه في الذهن من فضائل تمهد لغرض تصويب فعله . . وتقول "حارب الصديق أمير المؤمنين أهل الردة" إذا اهتممت بنكتة تلقي المؤمنين آنذاك لقراره بالقبول العام الأمر الذي يخدم غرض تصويب فعله من جهة أخرى . . وتقول "حارب الصديق الخليفة الراشد أهل الردة" في إشارة إلى ما ورد في اتباع سنة الخلفاء الراشدين . . ثم لك أن تقول في المحاربين "أهل الردة" للتنبيه على مسوغ حربهم وهو الردة . . ولك أن تقول "أعداء الإسلام" لتهييج المشاعر الإيمانية ضدهم . . وفي التعبير عن الحرب لك أن تقول "حارب أهل الردة" ولك أن تقول "أثخن في أهل الردة" . . وكلاهما يدل على المعنى العام للمقاتلة . . لكن لفظ الإثخان يستحضر النتيجة ويستدعي المشهد في الذهن . . ولك أن تقول كذلك "جاهد أهل الردة" لاستحضار فضل الجهاد هنا . . وهكذا تجدك في العدول من تعبير إلى آخر تتحرى النكت البلاغية . . ولك أن تستثمر الخيال فتقول "كسر شوكة أهل الردة" . . أو "مزق أوصال الكفر" . . أو "قطع رأس الضلالة" . . أو "بدد ظلام الكفر" . . أو "داوى صداع المرتدين بالسيف" . . وهكذا تستثمر الصور الخيالية في الذهن للتعبير

عـن نفـس المعنـى . . وإذا رغبـت بـبعض التحسـين اللفظـي قلـت " قاتـل المرتـدين . . وحطـم جماجم المعاندين . . غيرة لله ونصرة للدين " . . وهكذا . .

ومن بلغ في كلامـه أنـه يتحـرى النكـت البلاغيـة في كـل تفاصـيل تعبـيره فقـد بلـغ ذروة البلاغـة . . لـذا كـان مـن وجـوه الاعجـاز في القـرآن الكـريم اطـراد البلاغـة في مفرداتـه وتراكيبـه وأسـاليبه . . وهـذا مـا جعـل القـرآن يشـتمل عـلى ثـروة ضـخمة مـن النكـت اللفظيـة والمعنويـة . . بـل لعلـك لا تغادر لفظا إلا ولمحت فيه نكتة إما في اللفظ وإما في المعنى . . أو في كليهما . .

ولعل من أيسر وأجمع ما كتب في البلاغة كتاب " جواهر البلاغة " للهاشمي . .

الفرع السادس : الخصائص والأساليب والعادات :

من عادة العرب أنها تعبر عن البعض بذكر الكل . . فتقول مثلا " رأيت بني تميم " وما رأيت إلا بعضهم . . ومن عاداتهم القصد إلى الإيجاز في اللفظ غالبا إلا إن استدعى المقام الإطالة والتكثير . . ومن عاداتهم الكناية عن القبيح والتنزه عن التصريح بلفظه . . وهكذا تجد أن للعرب في كلامهم وأساليبهم عادات اعتادوها . .

وللغة العرب خصائص اختصت بها . . وطباع لغوية انفردت بها . . ومنها – مثلا – تقارب الألفاظ لتقارب المعاني كما في العَلْب والعَلْم فالأول الأثر والثاني الشق في الشفة السفلى . . والباء أخت الميم . . قاله ابن جني في الخصائص . .

ولا يتأتى معرفة عادات العرب وخصائص لغتهم إلا من خلال فحص ميراثهم اللغوي . . وتنظيم تفاصيله في نظريات عامة وقواعد جامعة . . وقد تجشم عناء هذه المهمة علماء اللغة . . فاستخلصوا من ميراث العرب ما استخلصوا من أساليب وخصائص وعادات . . ومن أجود ما كتب في هذا وأجمعه وأجمله وألخصه كتاب " الصاحبي " لابن فارس . .

الفرع السابع : الميراث اللغوي :

والمراد بالميراث اللغوي تلك الثروة العربية الضخمة في الشعر والنثر والقصص والأمثال . . وسبيل الاستفادة من هذه الثروة هو الانتخاب والاطلاع . . ثم تقييد الفوائد ومنثورات الملح . . فمن الشعر الدووابن المشهورة للبحتري وأبي تمام وغيرهما . . ومن أعتق الشعر المعلقات العشر . . وفي الأمثال كتب أجودها عندي كتاب الزمخشري " المستقصى في أمثال العرب " . . أما القصص والخطب والرسائل فيسعفك بها الجاحظ . .

العلم الثاني : علم أصول الفقه :

هذا العلم لصيق بعلم اللغة وربيب له . . وذلك أن معظم مادة هذا العلم مستمدة من مخازن اللغة العربية . . ويتضح ذلك بمعرفة موضوع هذا العلم . .

يدور علم الأصول حول ثلاثة قضايا رئيسية . . وهي ما يلي :

القضية الأولى : النظر في الأدلة . . وبيان مدى صلاحيتها للاحتجاج . . وتفصيل شروط حجيتها . .

وذلك أن الأدلة التي يتداولها الفقهاء نوعان : نوع متفق على حجيته إجمالا كالإجماع . . ونوع مختلف في حجيته كقول الصحابي إذا لم يخالف نصا ولم يخالفه صحابي آخر . . فالنوع الأول مهمة علم الأصول البرهنة على حجيته . . وتوضيح القيود والشروط التي تلزم لنفاذ حجيته في المسائل الشرعية . . وأما النوع الثاني فمهمة علم الأصول مناقشة القول بحجيته . . وبيان الرأي الراجح فيه . . ثم ذكر ما يشترط لحجيته . . وعلى هذا المنوال جرى المصنفون في علم الأصول . . فتجد المصنف يعقد بابا أو فصلا في الإجماع . . يسرد فيه أدلة الاحتجاج به . .

ثم يتناول شروطه وقيوده على شكل مسائل أو مباحث أو مناقشات . . وفي ثنايا ذلك تتناثر المسائل الفقهية كأمثلة تطبيقية للتقعيد الأصولي . .

القضية الثانية : النظر في قواعد الاستنباط . . وقواعد الاستنباط تستند معظمها إلى مألوف اللغة وقانونها . . فمنها ما يتعلق بالأوامر والنواهي . . ومنها ما يتعلق بالعموم والخصوص . . ومنها ما يتعلق بمنطوق النص ومفهومه . . وهكذا . .

وطريقة المصنفين أن يأتوا إلى باب الأوامر – مثلا – فيذكرون تحته المسائل التي ينضبط بها قانون الأمر . . مثل هل الأمر المجرد يدل على الوجوب ؟ . . وهل الأمر المجرد يفيد فورية الامتثال ؟ . . وهكذا . .

ثم يتحصل من مجموع تلك الأبواب قوانين تضبط عملية الاستنباط . .

القضية الثالثة : ترتيب الاجراءات العلمية المتبعة عند وقوع ما ظاهره التعارض بين الأدلة . . مما يستلزم الخوض في وجوه الجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض . . أو الترجيح بينها بحسب المرجحات . . ثم ينساق الكلام إلى سرد المرجحات . . وذكر الأمثلة عليها . .

هـذه قضـايا هـذا العلـم . . لكـن يتقـدمها مقدمـة في بيـان التعـاريف اللازمـة للأحكـام الشـرعية . . كتعريف الواجب . . والمستحب . . والشرط . . وغير ذلك . .

وعادة ما تختم كتب الأصول بخاتمة في آداب المفتي والمستفتي وشروط الاجتهاد الفقهي . .

وعلـم الأصـول لـو تجـرد عـن لوثـات المتكلمـين وافتراضـات المتكلفـين لكـان علمـا سـهلا لينـا . . لكـن دمجـه بعلـم المنطـق اليونـاني كـدر صـفوه . . وتطفـل علمـاء الكـلام عليـه أذهـب نضـارته . . وتحويله إلى ميدان لتصفية الحسابات العقائدية بين المعتزلة والأشاعرة أنهك قواه . .

إلا أن كثـيرا مـن المعاصـرين نحـا فيـه منحـى التنقيـة والتهـذيب فأجـاد وأفـاد وأنقـذ العلـم مـن شـوائب الضـلال . . ومـن هـذه الحيثيـة تفوقـت كتـب المعاصـرين علـى كثـير مـن كتـب الأقـدمين . . ولعـل مـن أجـود وأيسـر مـا كتبـه المعاصـرون في هـذا الفـن كتـاب "مـا لا يسـع الفقيـه جهلـه" للسلمي .

العلم الثالث : علم الحديث :

علم الحديث في واقعه شعبتان . . شعبة تعنى بمباشرة الرواية . . قوانينها . . وآدابها . . ومصطلحات أهلها . . وشعبة تعنى بنقد أسانيد الرواية والحكم عليها قبولا أو ردا . . بيد أن الحكم لا يتأتى مع الجهل بواقع الرواية . . وقوانينها . . وآدابها . . وظروفها . . ومصطلحات أهلها . . وعاداتهم في التحمل والأداء . . لذا اندمج علم الرواية كموضوع معرفي في علم نقد الأسانيد . . وصار جزءا من مادته . . واتخذ العلمان عنوانا واحدا هو " مصطلح الحديث " . . ومن هنا تجد علم المصطلح يشتمل على ما يختص بمباشرة الرواية من آداب . . ومصطلحات . . ويشتمل على قوانين النقد . . وقواعد الفحص والتمحيص للأسانيد والمتون . . مثل قاعدة رد حديث المبهم – الراوي الذي لا يذكر اسمه ولا ما يميزه بشخصه – . . وواضح أن المادة الدسمة في هذا العلم هي قوانين النقد وما تتضمنه من مباحث وآراء ومناقشات . .

وقوانين النقد تدور حول السلسلة الإسنادية . . متى تكون محل قبول . . ومتى تصبح محل ترك أو توقف . . ؟ . . وهذه السلسلة هي مجموعة متوالية من الرواة يروي بعضهم عن بعض

حتى يصل الإسناد إلى صاحب القول المنقول . . رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . . أو من دونه من الصحابة والتابعين ممن اعتنى الناس بنقل فتاواهم ووصاياهم . .

والرواة الذين تسلسلوا في تحمل الرواة وأدائها لابد في كل واحد منهم من تحقق صفة العدالة دفعا لتهمة الكذب . . ولابد في كل واحد منهم من تحقق صفة الضبط لما ينقل لدفع تهمة الغلط في النقل . . ثم لا بد أن يكون كل واحد منهم قد باشر التلقي عمن فوقه لئلا يكون تلقاه عن وسيط لا يعلم مدى تحقق العدالة والضبط فيه . . ثم لابد أن لا يخالفه في النقل من يثير الشك في دقة نقله . . ثم لا بد في الراوي إذا انفرد في الرواية أن يكون في صدقه وضبطه وعلاقته بمن يروي عنه ما يزيل الشبهة عن تفرده . . ثم لا بد أن لا يكون في المتن المنقول ما يثير الريبة في نسبته إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– . . أو إلى من دونه من الصحابة والتابعين . . فيترجح حينئذ غلط الراوي فيما روى . .

ويتضح من هذا العرض أن قوانين الرواية تدور في فلك الرواة . . فكل راو في السلسلة ينظر فيه من جهتين . . الأولى حالته العامة في مجمل رواياته . . والثانية : حالته الخاصة في الرواية المعينة محل الدراسة . . فإذا قصرت حالته العامة عن مستلزمات القبول سقط إسناده فورا . . أما إن ارتقت حالته العامة لطموح النقاد فينحصر البحث في حالته الخاصة في الرواية

المعينة هل ضبطها على عادته أم غلط فيها ؟ . . وغلط الثقة يدرك بغرابة تفرده . . وبمخالفة من هو أوثق منه . . وبما يحتف بالمتن من نكارة في المعنى أو ركاكة في اللفظ . . وبغير ذلك من القرائن ومثيرات الشبه حول دقة الرواية . .

وقد صيغت شروط القبول في قواعد نظرية . . وتخللها بحث مسائل ذات صلة بتلك القواعد . . فتقننت قواعد النقد . . وانبثق عنها تقسيم الحديث من حيث القبول والرد إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الصحيح . . والحسن . . والضعيف . . ولكل قسم منها درجات . . ثم برزت الحدود العلمية الفاصلة بين هذه الأقسام . . وانتهى الأمر إلى ميزان علمي دقيق توزن به الروايات . .

أما التخريج فهو تطبيق قوانين النقد المقررة في علم المصطلح على الأسانيد الموجودة في مصادر السنة . . وللتخريج ثلاث مراحل رئيسية . . أولها : الوقوف على أسانيد الحديث في مصادره الأصلية . . وهذا يحصل عادة بالاستعانة بالفهارس المصنفة لهذا الغرض . . ثانيها : دراسة تلك الأسانيد على ضوء قوانين النقد مع استحضار المعارف المنثورة في كتب الجرح والتعديل . . ثالثها : إصدار الحكم المناسب للحديث قبولا أو ردا أو توقفا . . مع مقارنة هذا الحكم الصادر عن الباحث بأحكام العلماء ذوي الشأن في هذا المضمار . .

ومرحلة دراسة الأسانيد هي جوهر فن التخريج . . وتتطلب خطوات يتعرف عليها الطالب ميدانيا . . ونذكرها هنا على الإيجاز . . فالخطوة الأولى تمييز الرواة لمعرفة أشخاصهم . . والخطوة الثانية البحث في أحوالهم الحديثية العامة على ضوء مقالات علماء الجرح والتعديل مع الموازنة بين تلك الأقوال بحسب قواعد الجرح والتعديل . . والخطوة الثالثة البحث في أحوالهم الخاصة بأداء الرواية محل الدراسة من خلال جمع طرق الحديث والمقارنة بين أداء الرواة في كل طبقة من طبقات الحديث . . وذلك ليتحقق الدارس من أداء الراوي . . فينظر ما إذا كان وافقه آخرون أو خالفوه أو أنه انفرد برواية هذا الحديث في طبقته . . هذا مع فحص المتن والنظر في لفظه ومعناه . . ولا يصلح لهذا إلا خبير . .

وأيما كان فمن أجمع وأيسر وأتقن ما كتب في علم المصطلح كتاب "تحرير علوم الحديث " للجديع . . لكن يفضل أن يقدم بين يديه ما هو أخصر منه وأقرب للمبتدئين كشرح النخبة للشيخ عبدالكريم الخضير . .

ومن أنفع ما كتب للوقوف على صحة الأحاديث خارج الصحيحين كتاب الوادعي "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" . . وما كتبه مصطفى العدوي من صحاح مسندة في " الفتن والملاحم " و " فضائل الصحابة " و " أذكار اليوم والليلة " . .

العلم الرابع : علم التفسير :

للتفسير مستويان . . وهما ما يلي :

<u>المستوى الأول</u> : معرفة معنى الآية . . وهذا يعتمد على علوم مستقلة . . منها علم اللسان بكل فنونه . . ومنها علم المقاصد الشرعية . . ومنها علم أصول الفقه . . ومنها معرفة الروايات المأثورة في تفسير الآية المنظور في تفسيرها . .

وعند التفسير لا يفصل العقل بين هذه العلوم بل يأخذ من كل علم المقدار المناسب له . . في الموضع المناسب له . .

وهذا يتم وفق عملية استدعاء ذهني تلقائي يعتاده العقل فيصبح سلوكا مألوفا له . .

ووجه ذلك أنك عندما تنظر في تفسير آية ما فهذا يعني أنك تبحث عن مراد الله تعالى . . وقد جعل الله تعالى لغة العرب لسانا لمراده . . لكن من صميم لغة العرب ملاحظة سياق الكلام . . وظرفه التاريخي . . وسبب صدوره . . وملاحظة غرض المتكلم . . واستحضار ما يساعد على فهم مراده من أحواله وأقواله . . مما يعني أننا لا نتعامل مع لغة تجريدية نذهب بها في كل احتمال يحتمله اللفظ المجرد . . بل نتعامل مع مراد معين سيق له الكلام . . لذا لم يكن هناك

بد من استحضار المقاصد الشرعية العامة . . وعادات القرآن البيانية . . ودلالات السياق . . والمعارف اللازمة لفهم اللفظ . . ثم في إطار هذه المحددات تتناول الآية بأدوات اللغة التحليلية من اشتقاق وصرف وإعراب وبلاغة وأصول استنباط . .

وهذا مسلك طويل وشاق لا يقدر عليه كل أحد . . لذا تم اعتماد فهم السلف الصالح في معرفة المراد مباشرة . . فالسلف عاصروا التنزيل . . وأدركوا مقاصد الشريعة . . وألفوا عادات القرآن . . وخالطوا من وكل إليه البيان – عليه الصلاة والسلام – . . وهم مع كل ذلك أصحاب لسان . . أخذوا اللغة من محاضنها . . وتعاملوا بها قبل أن تمسها أيدي الصناع . . فاستحقوا الصدارة في هذا الميدان . .

وقد اعتنى العلماء منذ القدم بجمع أقوال السلف . . ومذاهب تلاميذهم . . وسجل التفوق في هذا الجمع لإمام المفسرين ابن جرير الطبري . . ثم جاءت طائفة هذبت المنقول ولخصته . . فبرز نجم ابن كثير في سماء التفسير . . ثم جاء من أخذ حاصل المعاني وصاغها من عند نفسه بعباراته الجامعة الرشيقة . . أعني به عبد الرحمن السعدي أجزل الله مثوبته . .

المستوى الثاني : معرفة نكات التعبير القرآني ولطائفه . . وهذا يستدعي تحليلا لغويا مفصلا . . لأن النكت واللطائف لا يتفطن لها إلا من تشبع بعلوم اللسان ورزق ذوقا بلاغيا فطريا

عاليا . . ومن هنا قفز الزمخشري المعتزلي إلى الصدارة . . لولا ما شان به كتابه من اعتزاليات . . وتلاه أبو السعود خطيب المفسرين . . ثم جاء الطاهر ابن عاشور فجمع وأوعى في تفسيره الكبير " التحرير والتنوير " . . إلا أنه تعثر في العقيدة عثرات أوقعته بها عقيدته الأشعرية . .

وقد ابتلي علم التفسير قديما باقحام ما ليس منه في كثير من المصنفات . . وأكثر المصنفين إقحاما الرازي في مفاتح الغيب . . كما ابتلي حديثا بتطفل من ليس من أهله . .

وأيما كان فالتفسير المثالي هو الذي يتناول تحليل الآية تحليلا لفظيا بقدر . . منضبطا بفهم السلف . . ثم يبين حاصل معناها . . ثم يثير ما يظهر له من نكت ولطائف من غير تكلف . . ثم يستنبط ما شاء الله من الفوائد المستفادة من الآية بلا تعسف . . وإن احتاج إلى بحث مسائل على هامش التفسير فلا ضير إن كان ذلك يخدم تفسير النص ولا يجور عليه . . وممن جرى على نحو هذا من المعاصرين الشيخ العثيمين في تفسيره غير أنه لم يرو الظمأ في إثارة نكت التعبير ولطائفه . . لكنه أروى وأشبع في استنباط الفوائد رحمه الله رحمة واسعة . .

هذا وقد كتبت مؤلفات في قواعد التفسير أجمعها وأجودها وأسهلها في آن واحد ما كتبه خالد السبت في "قواعد التفسير"

العلم الخامس : علم القراءات :

علم القراءات يعتني بضبط روايات النص القرآني . . ومعظمه يعتمد على التلقي المباشر مشافهة عن القراء المتقنين . . ولست من أهله فأفيض في بيانه . . لكن المؤلفات فيه كثيرة جدا . . وقد أتى بعصارتها المعصراوي فيما كتبه على هامش مصحف القراءات . .

العلم السادس: التجويد:

التجويد علم تلقيني يعتني بضبط القراءة من جهة مخارج الحروف وأحكامها عند الاتصال والانفصال . . وما يطرأ عليها من تغيرات لفظية باختلاف مواضعها من الكلام . . ومن أجود وأيسر ما كتب فيه كتاب الحصري "أحكام قراءة القرآن الكريم" . .

العلم السابع : العقيدة :

لما جاءت الشريعة بأخبار مفصلة عن عالم الغيب تلقاها المسلمون الأوائل بالتسليم واليقين . . ثم برزت طوائف تنازع في بعض معاني الغيبيات وتذهب بها مذاهب شتى متأثرة بنزعات شخصية أو ثقافات دخيلة أو أديان محرفة . . فانصرفت همة أهل العلم إلى استخلاص الأخبار الغيبية وترتيبها ثم عرضها عرضا يوافق ما كان عليه الأوائل فيها . . وذلك ليسهل تداول العقيدة السليمة وتعليمها . . ومن هنا ظهرت المؤلفات التي تعتني بذكر أصول العقائد ونقل آثار السلف في بيانها . . ثم تشعب هذا العلم تبعا لتشعب مسالك الطوائف فيه . . وأخذ يتمدد كما ونوعا . . فسار في مسار التأصيل والتفصيل علماء . . وسار في مسار الرد والتفنيد آخرون . . واقتضت الحاجة العلمية تناول الفرق والطوائف بالدراسة عرضا ونقدا فظهرت كتب المقالات والفرق إلى حيز الوجود . . وجاءت بعد ذلك الشروح المطولة فدمجت غرض التأصيل والتفصيل في غرض الرد والنقد وكشف الشبهات . . فصار الكتاب العقائدي يشتمل على عرض قواعد أهل السنة وتفاصيل ما يؤمنون به مشفوعا بالأدلة والنقول . . كما يشتمل على الإشارة إلى مذاهب المبتدعة ونقضها بالأدلة العقلية والنقلية . .

والمضمون الأصيل لهذا العلم هو استعراض الأخبار الغيبية الواردة في نصوص الوحي وتلقي معانيها حسب فهم السلف . . والغيبيات تدور حول أصول الإيمان الستة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . . فهذه مواضيع الغيبيات ثم يلحق بها ما جاءت به النصوص عن الجن والشياطين وتفسير بعض الظواهر المتصلة بالغيبيات كالسحر والكهانة والرؤى ونحو ذلك ثم يلحق بها القطعيات العملية التي نازع فيها أهل الأهواء كالموقف من الصحابة رضي الله عنهم . .

لكن بحث الإيمان بالله تعالى لما اشتمل على المعارف الإلهية وفي ضمنها الأسماء الحسنى والصفات العلى من جهة وعلى الحقوق التأليهية لله تعالى من جهة أخرى اتسع فيه البحث في الجهتين . . لاسيما وأغلاط المبتدعة تدور معظمها في هاتين الجهتين . . الأمر الذي طور البحث والتصنيف في باب الأسماء والصفات . . كما طور البحث والتصنيف في باب توحيد الألوهية . . فانقسم التصنيف العقائدي موضوعيا إلى ثلاث شعب رئيسية . . شعبة تعالج العقيدة بعامة . . وشعبة تعالج موضوع الأسماء والصفات . . وشعبة تعالج توحيد الألوهية . . وداخل كل شعبة مستويات . . فمستوى يعتني بالتأصيل والتفصيل . . ومستوى يعتني باستعراض مقالات الطوائف ونقدها . . ثم اتسع نطاق التأليف أكثر فصارت كل وحدة

موضوعية من تفصيلات العقيدة هدفا للتصنيف المستقل كدلائل النبوة . . وتعريف الإيمان ومستلزماته . . وأشراط الساعة . . وهكذا . .

والمقصود أن علم العقيدة يرتكز على بيان الغيبيات . . ويتشعب في دراسة موضوعاتها . . ثم يتوسع ليتناول مقالات الطوائف المخالفة بالعرض والنقد . . والمادة التي يستمد منها هذا العلم هي النصوص الشرعية والنقول الأثرية في جانب التأصيل والتفصيل . . والوثائق التاريخية في جانب عرض المقالات المخالفة ونقدها . .

ولكي تدرس العقيدة تحتاج إلى قواعد سلفية عامة تضبط منهج التلقي والاستدلال . . ثم قواعد سلفية خاصة في الباب من أبواب الاعتقاد . . ثم أخذ النصوص المتعلقة بالغيبيات على ضوء القواعد السلفية العامة والخاصة . . ليتطابق أخذك لها مع أخذ الأولين . . وتنجو من تلبيسات المبتدعة الضالين . .

ومن هنا تلألأ في سماء العقيدة نجم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . . فقد استطاع أن يستخلص من النصوص الشرعية والآثار السلفية عيون القواعد في أبواب الاعتقاد . . مما جعل انتاجه العلمي مصدرا رئيسياً للعلماء من بعده . . وصارت مؤلفاته الكبار والصغار مرجعا للقراءة والدراسة والتعليم . . فقد كتب الشيخ في مجمل الاعتقاد كتاب الواسطية . .

وكتب في باب الأسماء والصفات الحموية والتدمرية . . وكتب في باب توحيد الألوهية الاستغاثة والتوسل . . وكتب في باب النبوة النبوات والفرقان . . وكتب في باب الإيمان الإيمان الأوسط والإيمان الكبير . . وكتب ردا موسعا على النصارى في الجواب الصحيح . . وردا مفصلا على الشيعة في منهاج السنة . . وردا موسعا على الفرق الكلامية في درء التعارض وتلبيس إبليس . . وناقش شطحات المتصوفة في الاستقامة . . وكسر صنم المنطق في نقض المنطق والرد على المنطقيين . . وأشبع البحث العقائدي في كل اتجاه تأصيلا وتفصيلا وعرضا ونقدا . . وامتلأت مؤلفاته بالقواعد والأدلة والنقول والمناقشات والفوائد واللطائف ونسبة المذاهب إلى أهلها وتحرير مواضع النزاع ورد المسائل لأصولها وبيان مآخذها وتتبع مسار تطورها التاريخي . . فكان آية من آيات الله تعالى . . رزق عقلا زاخرا بمهارات التفكير العليا وحفظا عجيبا وبيانا باهرا وسعة في الاطلاع وسموا في الهمة وعلوا في الطموح هذا مع متانة الديانة – نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدا – . . . وجاء من بعده تلاميذه فحملوا الراية عنه . . وواصلوا المسيرة من بعده . . وكان أشبههم به . . وأوفاهم لتراثه . . وأجدرهم بمكانه . . صاحب العقل الوقاد والقلم الأخاذ ابن القيم رحمه الله تعالى . . فألف الصواعق المرسلة في الأسماء والصفات . . وشفاء العليل في القضاء والقدر . . وغيرها من المؤلفات المباركة السائرة في الناس . . وهكذا ارتبط علم العقيدة بهذين الاسمين . . وصار

الأخـذ عنهما . . والعـزو إليهما . . عنوانـا لسـلامة الاعتقـاد . . ومـا همـا بمعصـومين . . لكنهما مـن الراسـخين في العلم حقـا وصـدقا . . بدلالـة ما نـالاه من ثقـة علميـة في أوسـاط أهـل السـنة قـديما وحـديثا . . ولله الفضـل والمنـة أولا وآخـرا . . وقـد قـال النبي -صـلى الله عليـه وسلم- لعمر "أنتم شهداء الله في الأرض" متفق عليه . .

ولعل ما يناسب القراءة للمبتدئ في هذا العلم أن يقرأ في بيان أصول الإيمان سلسلة عمر الأشقر . . وفي الصفات القواعد المثلى للعثيمين بتعليق البراك . . وفي التوحيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان أو الجبرين . . وفي مجمل الاعتقاد شرح الواسطية للبراك أو الغنيمان . .

العلم الثامن : علم الفقه :

علم الفقه هو العلم بتفاصيل التكاليف العبادية والتشريعات الحقوقية التي ينبني عليها أداء حق الله تعالى في التعبد وأداء حقوق العباد في شؤون الحياة ومتعلقاتها . . فيتناول فقه الطهارة . . والصلاة . . والجنائز . . والزكاة . . والصيام . . والاعتكاف . . والحج والعمرة . . والأضاحي . . ثم ينتقل إلى العقود التي تضبط التصرفات المالية . . ثم ينتقل إلى أحكام النكاح والطلاق وتوابع ذلك من عدة و حضانة ونفقة الخ . . ثم ينتقل إلى الأيمان والنذور وما يرتبط بها من أحكام . . ثم يتناول الأطعمة والأشربة ما يحل منها وما يحرم . . ثم يتناول الجهاد وأحكام المقاتلة والصلح والأسرى والغنائم الخ . . ثم يتناول أنواع الجرائم وما يترتب عليها من عقوبات محددة أو تقديرية . . ثم يتناول القضاء وما يتصل به من أحكام الشهود والبينات والإقرار . . وهكذا . .

ولما كانت مادة الفقه جامعة لأحكام وتشريعات مستنبطة من النصوص . . وكان الاستنباط يتأثر بالنظر العقلي من جهة وبالمقدمات العلمية المتصلة بفنون أخرى من جهة . . لما كان الأمر كذلك تحولت المادة الفقهية إلى مادة نقاش حول صحة الاستنباط وسلامة مقدماته ودقة تنزيله . . فصار في الحكم الواحد أقاويل . . وفي الدليل الواحد توجيهات . . مما أثرى المادة

الفقهية . . وجعلها غزيرة المباحث . . كثيرة المنازع . . عميقة المآخذ . . دقيقة المسالك . . يتجشم الناظر فيها تصور المسائل . . وفحص الأدلة . . وتمحيص المذاهب . . وجمع الاختيارات . . إلى أن يظفر بمراده . .

ومن هنا تعددت طرق العلماء في التصنيف في المجال الفقهي . . فمنهم من اعتنى بالتلخيص والتخليص . . ومنهم من اعتنى بمقارنة المذاهب ومناقشتها . . ومنهم من اعتنى بشرح النصوص الشرعية المتعلقة بالفقه . . فسار في درب التلخيص ثلة من علماء المذاهب الأربعة انصرفت هممهم إلى تقريب المذهب للمبتدئين . . ثم جاء من بعدهم من يشرح متونهم ويذكر أدلتهم ويناقش عباراتهم . . وسار في طريق المقارنة والمناقشة آخرون حملوا على عاتقهم مهمة جمع الأقاويل في كل مسألة وذكر الأدلة لكل قول ثم مناقشة الاستدلال واستخراج الرأي الراجح . . وسار آخرون في طريق الشرح والتوضيح للنصوص الشرعية في الفقه فتناول بعضهم آيات الأحكام بالبيان والاستنباط . . وتناول بعضهم أحاديث الأحكام تخريجا وشرحا . .

وكل هذه المصنفات تلتقي عند ذكر الأحكام الفقهية المستنبطة من النصوص الشرعية . . لكن بوجوه تصنيفية مختلفة . . واتجاهات مذهبية متنوعة . .

وقد اهتم جمع من العلماء بلغة الفقه والفقهاء فألفوا الكتب في بيانها . . واهتم آخرون بتتبع مسائل الإجماع . . واهتم آخرون بجمع اختيارات المحققين . . واهتم غيرهم بسرد المذاهب سردا مجردا دون استدلال ومناقشة . . . . وهكذا تشعبت السبل في خدمة الفقه من زوايا مختلفة . .

ولما اتسعت للناس طرق البحث والتصنيف كثرت المصنفات التي تعالج وحدات موضوعية معينة من المادة الفقهية . . فتجد من صنف كتابا جامعا في الطهارة . . وآخر في الصلاة . . وثالث في الزكاة . . وهكذا . . واهتم كثير من المعاصرين بالنوازل الفقهية المعاصرة . . كالنوازل المالية والطبية وغيرها . .

وعلى ضوء ما تقدم من اختلاف التصنيف سار التعليم الفقهي في اتجاهين رئيسين . . اتجاه يعتني بتعليم المتن الفقهي في مذهب من المذاهب الأربعة . . يتناول فيه المعلم المتن الفقهي . . شارحا عبارته . . ذاكرا دليله . . مناقشا حجته . . مبينا وجه الصواب فيه . . واتجاه آخر يعتني بتعليم المتن الحديثي المرتب على أبواب الفقه . . يتناول فيه المعلم الحديث الشريف . . مبينا درجة ثبوته . . شارحا لغريبه . . ذاكرا لاتجاهات الفقهاء في فهمه . . مبينا الأقوى في توجيهه والاستنباط منه . . معددا الفوائد المستفادة منه . . وهكذا . .

والأفضل للطالب أن يستفيد من الاتجاهين . . فيأخذ من كل اتجاه أفضل ما لديه من مهارات وخبرات . .

أما تحصيل الفقه عن طريق القراءة الفردية فيتطلب مؤلفا معاصرا تقترب عبارته من فهم الطالب . . ولعل من أفضل المؤلفات المعاصرة في الفقه الشرح الممتع على متن الزاد للعثيمين . . وفتح العلام على بلوغ المرام لعبد الله الفوزان . . والأولى بالطالب أن يقدم قبلهما قراءة مختصر سهل في الفقه كشرح عمدة الفقه للراجحي وشرح أخصر المختصرا للجبرين مع مختصر سهل في أحاديث الأحكام كتوضيح الأحكام للبسام . .

العلم التاسع : القواعد الفقهية :

القواعد الفقهية هي قواعد عامة مستخلصة من تفاصيل الأحكام الفقهية في عامة الأبواب الفقهية أو بعضها . . فقد لحظ الفقهاء أن ثمة معاني عامة تلحظها الشريعة و تعتد بها في أحكامها . . فتتبعوها . . ودرسوا سلوكها التشريعي . . وأثرها في الأحكام الشرعية . . وجمعوا فروعها . . واعتنوا بصياغتها . . والاستدلال لها . . وسرد أمثلتها . . وبيان محل إعمالها . . ومحل استثنائها . . وهكذا . . فمثلا مراعاة النوايا في أعمال المكلفين . . هذا معنى عام وجد أن الشريعة تلاحظه في كثير من تشريعاتها . . وتنوه به في صريح نصوصها . . فعلم أن تأثير النوايا في الأحكام قاعدة من قواعد التشريع . . فاعتمدت . . ثم تناولها العلماء شرحا واستدلالا وتمثيلا وتفريعا . . وتتبعوا ما يدخل تحتها . . وما لا يصلح أن يكون فرعا من فروعها . . ثم ضم إليها قاعدة تشريعية أخرى . . وثالثة . . حتى نضج علم القواعد الفقهية . . وتميزت القواعد الفقهية الكبرى . . والقواعد الفقهية الصغرى . . وتخلل ذلك وضع الضوابط التطبيقية . . والأحوال الاستثنائية . . فصار مبحث القواعد الفقهية فنا مستقلا . . فصنفت فيه المصنفات . . وتوالت فيه المؤلفات . .

ولعل من أجود وأيسر وأفضل ما كتب في هذا الفن كتاب الوجيز للبورنو . .

العلم العاشر : مقاصد الشريعة :

في كل تكليف من تكاليف الشريعة توجد حكمة تتشوف الشريعة لتحقيقها . . ومقصود تلمحه الشريعة أو تطلبه . . ومع تتبع الحكم التي تشوفت لها الشريعة في مختلف أحكامها وجد العلماء أن هناك مقاصد كبرى تهيمن على مرامي التشريعات . . ومقاصد أخرى مكملة لها . . أو دائرة في فلكها . . فحفظ النفس من التلف والهلاك مقصد تشوفت له الشريعة . . وشرعت لتحقيقه ما شرعت . . فحرمت الانتحار . . وحرمت تناول المضرات . . وحرمت الاعتداء على الأنفس المعصومة . . وشرعت العقوبات في سبيل ردع الناس عن الاعتداء على الأنفس المعصومة . . وشرعت للشخص حق الدفاع عن نفسه . . بل وحرمت تصرفات من شأنها أن تؤدي إلى تعريض حياة الآخرين للخطر . . فعلم من مجموع هذه التشريعات أن حفظ النفس مقصد من مقاصد الشريعة الكبرى . . ومطلب من مطالبها العظمى . . وهكذا . . بعد تتبع وسبر وفحص للشريعة استخرج العلماء مقاصدها . . وتناولوا رتب مطالبها . . وتوسع البحث في بيان المسالك العلمية المعتبرة في معرفة علل الشريعة ومقاصد أحكامها . . فصارت المقاصد فنا مستقلا . . تؤلف فيه الكتب . . وتصنف فيه الرسائل . .

ولعل من أجود وأيسر ما كتب في هذا الفن كتاب اليوبي حول مقاصد الشريعة . .

العلم الحادي عشر : السيرة النبوية :

علم السيرة يراد به الوقوف على تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم . . وما تخلله من أحداث ووقائع . . وما يستفاد منه من عبر وفوائد . . على المستويين الخاص والعام . . وقد ألفت في السيرة مؤلفات كثيرة . . ما بين مطول ومختصر . . ولعل من أجودها وأيسرها كتاب " الرحيق المختوم " للمباركفوري . .

المفتاح الثالث : العمد في كل فن :

لكل فن من فنون العلم الشرعي كتب معتمدة . . ومصادر أصلية . . يحسن بطالب العلم أن يقتنيها . . لتكون مرجعا له . . وذخرا له في مستقبله العلمي . .

ففي التفسير : تفسير ابن جرير الطبري . . وتفسير ابن كثير . . والجامع لأحكام القرآن للقرطبي . . وتفسير ابن عطية الأندلسي . . وتفسير الزمخشري . . وتفسير أبي حيان الأندلسي . . وتفسير ابن عاشور . .

وفي مفردات القرآن : المفردات للراغب . .

وفي علوم القرآن : البرهان للزركشي . . والإتقان للسيوطي . .

وفي الحديث : صحيح البخاري . . وأهم شروحه شرح ابن حجر العسقلاني . . وصحيح مسلم . . وأهم شروحه شرح النووي . . ثم سنن الترمذي . . وسنن أبي داود . . وسنن النسائي . . وسنن ابن ماجة . . وصحيح ابن خزيمة . . وصحيح ابن حبان . . وموطأ مالك . . ومسند أحمد . . ومسند الطيالسي . . وسنن الدارمي . . ومستدرك الحاكم

. . والمعجم الكبير للطبراني . . ومصنف عبد الرزاق . . ومصنف ابن أبي شيبة . . وسنن البيهقي . .

وفي كتب الجمع : مجمع الزوائد للهيثمي . .

وفي فهارس الحديث : تحفة الأشراف للمزي . . واتحاف المهرة لابن حجر . .

وفي رجال الحديث : التاريخ الكبير للبخاري . . والجرح والتعديل لابن أبي حاتم . . والثقات لابن حبان . . والكامل لابن عدي . . والضعفاء للعقيلي . . والمجروحين لابن حبان . . وتهذيب التهذيب لابن حجر . . وميزان الاعتدال للذهبي . . والتقريب لابن حجر . . والإصابة لابن حجر . .

وفي علل الحديث : علل الدارقطني . . وعلل ابن أبي حاتم . .

وفي التخريج : نصب الراية للزيلعي . . والبدر المنير لابن الملقن . .

وفي غريب الحديث : النهاية لابن الأثير . .

وفي شروح متون الحديث الفقهية : شرح ابن دقيق على عمدة الأحكام . . ونيل الأوطار للشوكاني . .

وفي السيرة : سيرة ابن هشام . . وشرحها للسهيلي . .

وفي التاريخ ورجاله : تاريخ ابن جرير . . والبداية والنهاية لابن كثير . . وسير أعلام النبلاء للذهبي . .

وفي العقيدة : مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم . . مع شرح الطحاوية لابن أبي العز . . والإبانة لابن بطة . . وكتاب اللالكائي . . والتوحيد لابن خزيمة . . والإيمان لابن منده . . والتوحيد لابن منده . . والشريعة للآجري . . والاعتصام للشاطبي . .

وفي الفرق والطوائف : الفصل لابن حزم . . ومقالات الإسلاميين للأشعري . .

وفي الفقه : المغني لابن قدامة . . والمجموع للنووي . . والاستذكار لابن عبد البر . . والتمهيد لابن عبد البر . . والمحلى لابن حزم . . والإفصاح لابن هبيرة . . وبداية المجتهد لابن رشد . .

وفي أصول الفقه : البحر المحيط للزركشي . . والإحكام للآمدي . . والغيث الهامع لأبي زرعة العراقي . . والمستصفى للغزالي . . وروضة الناظر لابن قدامة . .

وفي قواعد الفقه : قواعد ابن رجب . . والفروق للقرافي . .

وفي المقاصد : الموافقات للشاطبي . . والقواعد الكبرى للعز بن عبد السلام . .

وفي علم المصطلح : فتح المغيث للسخاوي . . وشرح علل الترمذي لابن رجب . .

وفي معاجم اللغة : معجم مقاييس اللغة لابن فارس . . والصحاح للجوهري . . ولسان العرب لابن منظور . . والقاموس للفيروزآبادي . . وأساس البلاغة للزمخشري . .

وفي النحو : شرح المفصل لابن يعيش . . وهمع الهوامع للسيوطي . . وشرح الشاطبي على ألفية ابن مالك . . ومغني اللبيب لابن هشام . .

وفي الصرف : الممتع لابن عصفور . .

وفي البلاغة : أسرار البلاغة للجرجاني . . ودلائل الإعجاز للجرجاني . .

وفي الأساليب والخصائص : الخصائص لابن جني . . والصاحبي لابن فارس . . وفقه اللغة للثعالبي . .

وفي الشعر والأمثال والقصص والخطب والرسائل : المعلقات وشروحها . . والحماسة لأبي تمام مع شروحها . . والمستقصى للزمخشري . . وجمهرة الأمثال للعسكري . . والبيان والتبيين للجاحظ . . والكامل للمبرد . .

المفتاح الرابع : مصطلحات العلوم :

لكل فن من فنون العلم الشرعي مصطلحات يختص بها أهل الفن . . فالعلة مثلا عند الأصوليين هي المعنى الذي راعاه الشرع وعلق الحكم عليه . . كما في تحريم الخمر لأجل ما فيه من إسكار يذهب العقل . . فذهاب العقل وفقد السيطرة على التصرفات علة راعاها الشرع ونظر إليها في تحريم الخمر . . فتقول علة تحريم الخمر الإسكار . . أما العلة عند المحدثين فأمر آخر تماما . . ولهم فيها مصطلح مختلف ومراد مغاير . . فالعلة عندهم هي سبب خفي لضعف الرواية . . كما لو روي حديث بإسناد ظاهره الصحة . . لكن بعد جمع طرق روايات الحديث والنظر فيها ومقارنتها بهذا الإسناد تبين أن أحد رواته غلط في روايته بدليل مخالفة جمع من أقرانه الثقات له في الرواية . . فهنا تكون المخالفة التي علمت بعد جمع طرق الحديث علة لهذا الإسناد الذي ظاهره الصحة فيضعف بسببها الإسناد وترد الرواية . . فهذا المعنى الاصطلاحي للعلة عند المحدثين يغاير المعنى الاصطلاحي للعلة عند الأصوليين . .

وهكذا تجد عند الفقهاء مصطلحات ذات دلالة خاصة . . وعند النحويين كذلك . . وعند أهل كل تخصص اصطلاحات خاصة اصطلحوا عليها بحسب حاجتهم الفنية لها . . ثم تداولوها بالمعنى الاصطلاحي . . فصارت مألوفة بين أهل الاختصاص . .

وكتب التفسير والشروح كتبها علماء موسوعيون . . ومن عادة العالم الموسوعي أن يعبر عن كل فن يتناوله باصطلاحات أهله . . لذا صار للعلم الشرعي لغة خاصة . . اجتمعت من مختلف الفنون العلمية . . ففيها مصطلحات أهل النحو والإعراب . . ومصطلحات أهل الأصول . . ومصطلحات الفقهاء . . والمحدثين . . والمؤرخين . . وهكذا . . وبهذه اللغة العلمية كتبت التفاسير والشروح وغيرها من مؤلفات الشريعة . .

لذا ينبغي للطالب أن يتعرف على هذه اللغة ويألفها من خلال مخالطة أهل العلم . . وتلقي مصطلحاتها عنهم . .

المفتاح الخامس : السلوك العقلي العلمي :

للعالم سلوك عقلي خاص في تناول مسائل العلم . . وهذا السلوك يتطبعه العقل بالخبرة الحاصلة من مخالطة العلماء وقراءة كتب العلم . . ومعنى السلوك العقلي الخاص أن العالم يعتاد عقله على مثيرات اهتمام معينة . . ويعتاد في تحليل المسائل ومعالجة معطياتها على طريقة علمية معينة . . وتترسخ فيه رتب الأشياء بحسب الحاجة العلمية . . ويلحظ في أحكامه ملاحظ معينة . . ويبني على مقدمات ومسلمات معينة . . فيكتسب بالتكرار عادات . . تصبح بعد حين سلوكا خاصا للتفكير والإدراك وتعقل المسائل . .

ومع الاستمرار في الحقل العلمي ومعالجة قضاياه . . وفق عادات خاصة . . يكتسب العقل لياقة في سلوكه العلمي . . شأنه شأن البدن في لياقته الرياضية . .

لكن ليس لاكتساب هذه العادات واللياقة هيئة خاصة . . أو وصفة تفصيلية . . لا بل يكتسبها العقل بشكل تلقائي فطري بمجرد وضعه في مناخ علمي لمدة طويلة . .

ومعنى هذا أن العلم ليس معلومات يجمعها الطالب . . أو محفوظات يحفظها . . بل لا بد للمعلومة والمحفوظ من وعاء عقلي ناضج يجيد تلقي المعلومة والمحفوظ . . ويضعهما في

الموضع المناسب . . ويستخدمها في المحل الملائم . . في الظروف العلمية الصحيحة . . بحيث تنسجم الجزئيات مع الكليات . . وتتوافق مع بقية المعطيات في الموضوع الواحد . .

هذا وفي مخالطة العلماء فوائد عقلية أخرى . . منها تنبيه العقل إلى المهمات في النظر والبحث . . ومنها إيقاظ المهارات الكامنة في العقل . . وتنميتها . . وصقلها . . مثل مهارة التقسيم . . والاستنباط . . وغير ذلك . . ومنها تسلل الملكات بكثرة المخالطة . . فالطالب إذا خالط معلما بارزا في جهة من جهات التعقل يتفطن لهذه الجهة ويلتقط مفاتحها ومساراتها . . ومنها التنبه إلى مثارات الغلط في التفكير من خلال تصويبات المعلم لأخطاء تلاميذه . . ناهيك عن الجوانب النفسية والأخلاقية التي تكتسب بالمخالطة . . كطريقة تناول الخلاف . . والتعامل مع المخالفين . . ونحو ذلك . . هذا مع اكتساب مهارات البيان . . وأساليب التعبير . . وفنون القول . . وغير ذلك . . وهذا كله يصب في مجرى بناء الشخصية العلمية بناءً متينا رصينا حصينا . .

والقصد أن العقل العلمي له خصائص . . وسمات . . وعادات . . وأنه يتحرك في مسارات منضبطة . . ويعتمد على رصيد من المحفوظات والمعلومات والمذاهب والأقاويل . . ويميز بين القواعد والفوائد . . ويربط النتائج بمقدماتها . . والفروع بأصولها . . ويحترز من مظان

الغلط . . ويحسن التعامل مع مشكلات التصور . . ويعالج المعطيات وفق قوانين ومسلمات . . ويحلل المسائل المركبة إلى عواملها البسيطة . . وينتبه لتداخل المسائل . . ويتفطن لتجاذب الأصول لفرع واحد . . ويدرك التلفيق في الأقوال الملفقة . . ويعرف الفروق الدقيقة في المسائل المتقاربة والمتشابهة . . ويتفهم مأخذ المسألة ببداهة نظره . . ويعيد كل مقالة إلى أصولها . . ويورد الإيرادات ويجيب عنها . . وأنشطة كثيرة يمارسها العقل العلمي كما يمارس أحدنا التنفس . .

وبهذا يختلف الرأي العامي عن الرأي العلمي . . ويختلف النظر المنفلت عن النظر المنضبط . . وتختلف مناقشة العالم لقول عن مناقشة الجاهل . .

المفتاح السادس : وسائل التعلم :

الوسيلة الأولى : التلقي المباشر عن المعلم المتقن :

يحتاج الطالب إلى معلم متقن يذلل له صعاب العلم . . فيفتح له أقفال المسائل . . ويكشف له أسرار المباحث . . ويمده بقواعد الأبواب . . ويأتي له بخلاصات الدراسات . . ويرسم له خارطة المدارس والاتجاهات . . ويتحفه بالفوائد واللطائف والملح . .

ويغرس في عقله بذور الملكات . . ويضع بين يديه معالم منهج النظر العلمي . . ويجيب على إشكالاته . . ويزيل عنه غشاوة الشبهات . . ويبدد ما لعله علق بذهنه من علائق الباطل . .

وليكن اختياره للمعلم مبني على الأسس الآتية :

<u>الأساس الأول :</u> متانة الديانة . . وذلك أن العلم ميراث نبوي . . ونقله أمانة دينية . . ومن لا يملك الأمانة بوسعه أن يحرف المعاني الشرعية . . وأن ينحرف بعقول تلاميذه إلى ما يهواه هو لا ما يعلمه من الشريعة . . والعالم يمتلك من الأدوات العلمية . . والمهارات العقلية . . والفنون

الكلاميـة . . مـا يسـتطيع بـه عـرض الباطـل بصـورة الحـق . . وعـرض الحـق بصـورة الباطـل . .

ولذا جاء ذم علماء السوء . . والتحذير من زلاتهم . . وضلالاتهم . .

وعلمـاء السـوء لا ينحصـرون في علمـاء السـلاطين الـذين وظفـوا علـومهم وطاقـاتهم العقليـة والبيانيـة لخدمـة أغـراض الحكـام والسـلاطين . . بـل هنـاك نمـاذج كثـيرة لهـذه الأنفـس الموبـوءة . . يجمعهـا اتبـاع الهـوى وتوظيـف العلـم لخدمـة الغـرض . . والهـوى لـه صـور لا تحصـى . . منهـا التعصـب الأعمـى للباطـل . . ومنهـا الاغـترار بالباطـل وتحسـين الظـن بأهلـه . . ومنهـا الاستكبار عن الرجوع للحق بعد التورط بالخطأ . . وغير ذلك كثير . .

فمـن سـلم عقلـه للثقافـات الأجنبيـة يلمعهـا ويميـل إليهـا ويحـرف الشـريعة لأجلهـا فهـو عـالم سـوء . . ومـن نـزع إلى الغلـو في بعـض مفـاهيم الشـريعة فطـوع علومـه لإشـباع نزعـة الغلـو في نفسـه فهـو عـالم سـوء . . ومـن جعـل رأيـه الشخصـي مقـدما علـى العلـم الشـرعي فهـو عـالم سـوء . . ومـن تبنـى عقيدة ضلالية ودعا إليها وجعل العلوم خادمة لها فهو عالم سوء . . وهكذا . .

<u>الأسـاس الثـاني :</u> الإتقـان للعلـم الـذي يباشـر تعليمـه . . والمسـاهمة في العلـوم الخادمـة لفنـه . . فالعـالم نصـف المـتقن لا يفـي بغـرض المـتعلم بـل لعلـه يضـر أكثـر ممـا ينفـع . . وآيـة الاتقـان شـهادة أهـل العلم له بالإتقان والدراية . .

الأساس الثالث : التمكن من أدوات التعليم وأساليبه . . فإن العلم المخزون بالرأس لا يصل للمتعلم إلا بالبيان الشافي . . وهذا يتطلب من المعلم خبرة ومهارة . .

الأساس الرابع : التخلق بالأخلاق الفاضلة . . لأن الطباع سراقة . . والأخلاق تنتقل عبر المخالطة . . فليحتط المتعلم لأخلاقه . .

الأساس الخامس : التحلي بالحكمة . . فإن المعلم إذا لم يضع الأمور في نصابها . . ولم يقدر مقادير المراحل والمناسبات . . ولم ينظر في المآلات . . إذا لم يفعل ذلك أفسد من حيث يريد الإصلاح . .

الوسيلة الثانية : القراءة :

القراءة الواعية التي تقوم على الانتخاب وحسن الاختيار من شأنها أن تمد الطالب برصيد معرفي هائل . . ومن شأنها أن تصله ذهنياً بشخصيات علمية باهرة . . ومن شأنها أن تكسبه طرقا متعددة لعرض الموضوع الواحد . . لذا لم يكن بد لطالب العلم من إدمان القراءة . . والانكباب على الكتب النافعة . . ومن يحرم القراءة فاته معظم العلم . .

فالمجالس العلمية مهما أكسبت الطالب من معارف . . وملكات . . ومهارات . . وخبرات . . تبقى قاصرة عن طموحه المعرفي . . وتبقى محدودة العطاء لاسيما في الجانب المعلوماتي . . لذا فمن مهمات التعلم تعويد النفس على القراءة . .

والقراءة لا تؤتي ثمارها المنشودة إلا مع الانتخاب . . انتخاب الكتاب المناسب . . في المرحلة المناسبة . . وهذا يستدعي توفر مستشارا علميا يهتدى برأيه . . لا سيما في البدايات . .

ثم إن القراءة نفسها لا بد أن تكون قراءة هادئة . . فاحصة . . لا تمر على الكلام مرور الكرام . . ولا تغادر موضعا لم تدرك مغزاه ومراد كاتبه . .

وأما تقييد الفوائد . . وتحديد المهمات بالخط والتلوين . . ونحو ذلك . . فهذه طرق استثمار . . ومعينات على التركيز . . والتمييز . . لكنها ليست بشرط للاستفادة من القراءة . . وفائدة القراءة لا تتوقف عليها . . بل هي من نوافل القراءة وتوابعها . .

والتشديد فيها فوت على كثير من الناس خيرا عظيما . . وذلك أنها أعباء تضاف للقراءة . . وبالأخص تقييد الفوائد . . والنفوس تتفاوت في تحمل الأعباء . . بل النفس الواحدة تختلف أحوالها من وقت لآخر . . فكم نفس نفضت يدها من القراءة فرارا من هذه الأعباء !! . . ولو طلب منها القراءة المجردة لأقبلت واستفادت . . !

وما هذه بأول (المبالغات القاصمة) . . فكم بولغ في تحسينيات وكماليات . . فعاد الحرص بضده . . ورجع النصح بنقيضه !

ثم إني أوصي باستراحة العقل من سمين العلم – أحيانا – في القراءة الحرة للكتب الفكرية الرشيدة والدواوين الشعرية الممتعة وكتب الأدب والتاريخ . .

وقد تقدم ذكر ما يناسب القراءة للمبتدئين في كل فن . . أما القراءة الحرة فننصح بكتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي . . وكتاب العلمانية لسفر الحوالي . . وكتاب

الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين . . وكتاب في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر . . وكتاب فقه الثورة لأحمد الريسوني . .

الوسيلة الثالثة : الحفظ :

تقدم لنا أن الحفظ يساعد الفهم ولا يعانده . . لكن الحفظ المحمود الذي نرشد إليه ونحث عليه هو حفظ الوحي الكريم . . القرآن الكريم . . وما تيسر من متون السنة المطهرة . . وأما ما سوى ذلك فلا أحبذه . . ولا أحتفل به . . لا سيما مطولات المنظومات . . والألفيات المتعددة في الفنون . . اللهم إلا ما كان في علم القراءات – كالشاطبية – لما قد قيل من توقف ضبط الفن على حفظها . . والله أعلم بواقع الأمر . . وأيما كان فحفظها مقصور على المتخصصين في القراءات . .

فالحاصل أن الشخص المتوسط في الحفظ لا داعي يدعوه لتجشم عناء حفظ المتون العلمية . . ومزاحمة محفوظات الوحي بها . . حفظا . . وضبطا . . وتعاهدا . . فضبط الفنون متوقف على ضبط معانيها وفهم مراميها لا ضبط ألفاظ الماتنين والناظمين . .

ثم اعلم أن حفظ القرآن يحسن أن يكون بالتلقين والعرض على شيخ متقن . . أما حفظ السنة فيكفي فيه الكتاب الموثوق . .

ومما نرشحه لحفظ السنة كتاب اللؤلؤ والمرجان لمحمد فؤاد عبد الباقي . . أو الوافي بما في الصحيحين لصالح الشامي . .

ولو انتخب الإنسان لنفسه محفوظا من الصحيحين فلا ضير . .

ثم بعد ذلك يحفظ الإنسان من شوارد الأبيات والأمثال والنقول ونحو ذلك ما يلامس ذوقه الأدبي ويفي بحاجته العلمية . .

وليس للحفظ برنامج محدد لا يتعداه الحافظ . . بل هي اقتراحات يعرضها الناس بحسب تجاربهم الخاصة . . وما أتاحته لهم ظروفهم الشخصية . . لذا فلا يجعل الشخص تجارب الآخرين طريقا أوحد إلى مراده ومطلوبه . . وإنما يتعامل معها على أنها خيارات معروضة . . ومن ورائها خيارات أخرى يبتكرها الشخص بحسب حاجته وظروفه . .

الوسيلة الرابعة : البحث :

من طرق تحصيل العلم اقتحام مجال البحث العلمي . . ففي البحث العلمي التعرف على المراجع المعتمدة في كل فن . . وفيه اكتساب المعارف حول المصنفين وطرقهم ومناهجهم . . وفيه التعامل المباشر مع المذاهب والمقالات والمناقشات المكنونة داخل المصنفات . . وفيه الاطلاع على ما يفوت في المناقشات المرتجلة . . وفيه توثيق النصوص بأمانة عالية ودقة متناهية . . ثم فيه نشأة شخصية الباحث العلمية بين الأوراق والأقلام والمصادر . .

ومعنى البحث أن تستهدف مسألة علمية فتذهب تجمع ما قيل فيها . . وتنقح المقالات . . وتوجهها . . وتناقشها إن أمكن . . ولا شك أن الأبحاث الأولى ستكون ناقصة وهزيلة . . لكنها خطوات لا بد منها للترقي في مستوى البحث وعمقه . . ومرحلة لا مفر منها لاكتساب أدوات البحث ومهاراته . . لذا لا يضق صدرك بنتائج أبحاثك الأولى . . فالإنسان ولد طفلا . . ولم يولد شابا يافعا . . ولا شيخا ناضجا . .

الوسيلة الخامسة : التلخيص :

مما يفيد جدا في طلب العلم تلخيص المطولات . . وذلك بأن تستهدف كتابا في فن من الفنون . . ثم تعمد إلى تلخيصه . . فمثلا لو أردت اختصار تفسير ابن كثير فأول ما ستفكر فيه الاستغناء عن أسانيده . . ودمج المقالات المتشابهة ببعضها البعض . . واختصار الروايات والقصص بحسب ما يفي بغرض التلخيص . . وهكذا . .

وتلخيص المطولات سبب في اتقان الفنون التي تعالجها تلك المطولات . . وذلك أن الملخص يستجمع قواه العقلية لفهم المغزى . . وتمييز ما يستبعد وما حقه أن يبقى . . وفوق ذلك يكتب بيده ما قرأ . . ويتصرف بالعبارات بحسب ما يفهم ويريد . . وهكذا . . . وهذا كله يؤدي إلى تعميق المادة في الذهن . . فينطبع الفن من خلال ملخصه في ذهن الطالب . .

الوسيلة السادسة : الاستماع :

والمقصود هنا الاستماع إلى الدروس من خلال الوسائل الحديثة . . ففي شبكة الانترنت مواقع زاخرة بسلاسل الدروس العلمية في مختلف الفنون . . لطائفة كبيرة من علماء العصر . . والاستماع لهذه الدروس يحقق معظم فوائد الحضور المباشر أو كلها . . لذا صار هذا المسلك بابا لاستدراك ما فات الطالب أو تعسر عليه من مجالس العلم . . فمن فاته العثيمين مثلا فمن السهل عليه أن يفتح موقع " طريق الإسلام" . . أو " الإسلام ويب " فيستمع إلى ما شاء الله من دروس الشيخ العثيمين في أي فن شاء . . ومما يثلج الصدر في هذه المواقع أنها جمعت مادة ضخمة جدا لعلماء العصر . . فمن ذلك شرح زاد المستقنع للعالم الورع محمد المختار الشنقيطي . . وشرح سنن الترمذي للمحدث الحافظ عبد الله السعد . . وشرح فتح المجيد لبقية السلف العلامة عبد الله الغنيمان . . وسلاسل العقيدة للشيخ المفضال خالد المصلح . . وشروح المصطلح للشيخ الجليل سعد الحميد . . وشروح الواسطية والطحاوية للشيخ العبقري يوسف الغفيص . . وهكذا تجد شروح المتون العلمية في كل فن من الفنون . .

والاستماع ميسر من جهة حرية اختيار الزمان والمكان وترتيب جداول الاستماع . . بل يستطيع الإنسان أن يصنع لنفسه جامعة علمية متكاملة في غرفته الخاصة . . فلله الحمد والمنة . .

المفتاح السابع : مزالق في طريق التعلم :

فيما يلي التحذير من مزالق تضر بالمتعلم . .

المزلق الأول : الاستعجال . . فكثير من المتعلمين يتحمس لاستعجال نتائج التعلم . . ويريد أن ينتهي من أعباء التعلم في أسرع وقت . . وهذه معاندة لسنن الله الكونية . . فالعلم الكثير العميق المنتشر في فنون مختلفة يستحيل في – معتاد البشر – ضبطه في وقت وجيز . .فللعلم فنون . . ولكل فن مستويات . . والفن بجملته له حق زماني . . وكل مستوى من مستوياته له حقبة زمنية لا بد أن يستهلكها . . فكيف تختزل المدد الزمانية الطويلة في سنة أو سنتين ؟ !

. .

المزلق الثاني : انعدام الرؤية في المجال العلمي . . فالطالب الذي لا يميز اختصاصات المعلمين . . ولا يدرك تفاوت ما بينهم . . ولا يعرف مصادر كل فن وعمده . . ولا يتوقى من تلقف العلم عمن هب ودب . . من هذه حاله فهو أعمى يتخبط في ظلمات الجهالة . . وغالبا ما يتحول لفريسة تنهشها ذئاب التعالم . . لذا كان لا بد للطالب من رؤية واضحة . . ولابد له من تمييز بين المختص وغير المختص . . وبين المتقدم السابق والمتأخر اللاحق . . وبين المصلح

والمفسد . . فالساحة العلمية اليوم مليئة بالغثاء . . وتكتظ بالمتعالمين . . والمفسدين . . والمنحرفين عقائديا . . بل وتطفل عليها من هو إلى المساطيل والمخبولين أقرب . . فإلى الله المشتكى . . فعلى المتعلم التحري فيمن يتلقى عنه أشرف المطالب . .

المزلق الثالث : انحراف الغرض . . كثيرا ما يقبل الطالب على التعلم لغرض صحيح ثم ينحرف غرضه . . إما تأثرا بالمنافسات بين الأقران . . وإما استشرافا للمنازل العالية التي نالها العلماء بعد كد وجهد وعناء . . وإما رغبة في دنيا معروضة بين يديه . . وإما لغير ذلك . . وانحراف الغرض يحول سعي المتعلم إلى وبال عليه في الدنيا والآخرة . .

المزلق الرابع : الجدل القاتل . . يخلط كثير من المتعلمين بين المذاكرة النافعة والجدل القاتل للساعات الهادم للعلاقات . . فالمذاكرة مع الأقران سبيل من سبل تعاهد العلم وتمحيصه . . لكن الجدل الذي يستنزف الأوقات . . ويثير النزغات . . ويقضي على المودة . . ويشحن القلب بالأحقاد . . هذا الجدل لا خير فيه . . ولا يفيد حتى في قضية العلم . . وإن أفاد فمصلحته مغمورة في مفاسده . . لذا فعلى الطالب التمييز بين النوعين . . وتوخي الحذر عند المذاكرة من التورط بحبائل المراء والنزاع والشقاق . .

المزلق الخامس : تمزيق الفنون . . وذلك بأن يطلب المتعلم الفنون بشكل مبعثر . . ويقرأ في العلوم بطريقة مشتتة . . فيحصل من كل فن وعلم على أبعاض متناثرة . . ويظن أنه على شيء . . وما في جعبته شيء . .

المزلق السادس : الغلو في المعلمين والمفاصلة عليهم . . وهذا مرض الصغار . . فتجد المتعلم إذا عرف معلما وأعجب به قصر العلم كله عليه . . وامتحن الخلق به . . ووالى وعادى عليه . . وبالغ في مدحه كما ونوعا . . وهذا سلوك ممجوج لا يرتضيه المعلم نفسه . . نعم للمعلم حقوق المؤمنين العامة . . ويستحق من المحبة والثناء والشكر والدعاء ما يليق بمنزلته ومقامه وفضله . . لكن بقدر . . دونما غلو ولا مبالغة . .

المزلق السابع : الانفصال عن الواقع . . يستغرق بعض المتعلمين في التعلم لدرجة أنه ينفصل عن الواقع . . فلا يعرف عن الساحة الدعوية شيء . . ولا يدرك من المعركة الثقافية شيء . . ولا يفهم من السياسة الملتفة على عنقه شيء . . ولا يعنيه من مكر الأعداء الذي يحيط به شيء . . ويبقى في سباته وغفلته . . حتى إذا استيقظ بعد عمر أتى بعجائب التحليلات والفتاوى . . ونزل العلم الشريف في مستنقعات التوظيف . . وصار حربا على أمته لا عونا

لهـا . . وهـذا كلـه نتيجـة الغفلـة والانفصـال . . لـذا لابـد للطالـب مـن أن يأخـذ بنصـيبه مـن فقـه الواقع . . وإلا فلا يلومن إلا نفسه . .

المفتاح الثامن : المدارس والاتجاهات العلمية :

يحتار المتعلم من كثرة المدارس والاتجاهات داخل العلوم . . ففي العقيدة أهل السنة وأهل البدع . . وفي الفقه المذاهب الأربعة . . وفي النحو البصريون والكوفيون . . وفي الحديث المتقدمون والمتأخرون . . وهكذا . .

والواقع أن المدخل الصحيح لاتخاذ الموقف المناسب من هذه الاختلافات أن تعرف أن الاختلاف له مستويان . . كما يلي :

المستوى الأول : الاختلاف الناشئ عن اتباع المخالفين للأهواء . . فهنا يكون أحد طرفي الخلاف مهتديا جديرا بأن ينحاز المتعلم إليه ويواليه ويثني عليه ويأخذ العلم عنه . . في حين يكون الآخر ضالا يستحق الذم والمعاداة . . كما في نزاع أهل القبلة في العقائد . . فأهل السنة أهل الهداية . . ومن سواهم ضالون مضلون . .

المستوى الثاني : الاختلاف الناشئ عن تفاوت الأفهام في حدود ما تسمح به الشريعة . . كاختلاف المذاهب الفقهية . . والمدارس النحوية . . والاتجاهات الأصولية . . فهذا اختلاف أذنت به الشريعة إجمالا . . ووسعت فيه . . رفقا بالعباد . . ومراعاة لما جبلوا

عليه من تفاوت الأفهام . . فهنا لا يهتم المتعلم بالانحياز إلى فئة على حساب أخرى . . وإنما يعتني بأخذ النافع عن كل أحد . . وتلقي الحق من أي طرف . . وترك البغي في المخالفة . . والفجور في المخاصمة . .

وربما تركبت مخالفة بعض المخالفين من الهوى المذموم والاجتهاد السائغ في آن واحد . . فيعامل حينئذ بما يستحقه من معاتبة أو معاقبة أو مسامحة . . لأن من المخالفين من يكون معه بعض الحق . . وله في اجتهاده بعض الإذن . . لكنه يغلو فيما معه من حق . . أو يرد ما عند مخالفه من حق . . أو يظلم مخالفه ويجور عليه بغير حق . . فيخلط الحق بالباطل . .

عافانا الله من دسائس الهوى . .

المفتاح التاسع : نجوم العلم :

مع كثرة الأسماء المعروضة في الساحة العلمية يحتاج المتعلم إلى (اعتماد ثقة) لمعرفة من هو أهل للتعليم . . والواقع أن الأفاضل والقدوات كثر بفضل الله تعالى . . والإحاطة بهم متعذرة . . لكني أورد هنا بعض الأسماء اللامعة في فضاء العلم . . حثا على الأخذ عنهم . . وتحريضا على الاستفادة منهم . . ففي التفسير وعلوم القرآن الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق . . والشيخ خالد السبت . . والشيخ مساعد الطيار . . وفي الفقه الشيخ محمد المختار الشنقيطي . . والشيخ خالد المشيقح . . وفي العقيدة الشيخ عبد الله الغنيمان . . والشيخ عبد الرحمن البراك . . والشيخ ناصر العقل . . والشيخ يوسف الغفيص . . وفي الحديث الشيخ عبد الله السعد . . والشيخ سليمان العلوان . . والشيخ إبراهيم اللاحم . . والشيخ سعد الحميد . . وفي الأصول الشيخ عبد الكريم النملة . . والشيخ عياض السلمي . . وفي النحو الشيخ محمد الفاضل . . والشيخ حسن الحفظي . . وفي فقه السياسة الشرعية الشيخ حامد العلي . . والشيخ ناصر العمر . . وفي فقه المعاملات المالية المعاصرة الشيخ عبد الرحمن الأطرم . . والشيخ يوسف الشبيلي . . هذا من حضرني ووسعني ذكره في هذه

العجالـة مـن أهـل العلـم الأحيـاء . . حفظهـم الله ومتـع بحيـاتهم ونفـع بعلـومهم وبـارك في أوقـاتهم . .

تم المقصود بحمد الله تعالى . .

الفهرس